العلاقات

بين المسلمين والمسيحيين
في الحبشة المعاصرة

للأستاذ زاهر رياض

حاولنا في المقالين السابقين أن نستعرض العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة، منذ أن ظهر الاسلام في القرن السابع الميلادي وأخذ يشق طريقه الى الحبشة ، حتى أواخر العصر الحديث . ولا بد — قبل أن يتقدم بنا البحث الى مدى هذه العلاقات في الحبشة المعاصرة — أن نوضح شيئاً لا بد من توضيحه . وهو ان الاسلام الذي أخذ ينتشر في الحبشة كان في أول أمره اسلاماً خالصاً نقياً بتلاءم ونوع المهاجرين الاولين . على أن هذا الاسلام لم يلبث ان شابه شيء كثير من الآراء التي أضحت تتنافى وروح الاسلام الحقيقي. فقد اختلط به شيء كثير من غلو الشيعة لان كثيراً منهم ومن غلاتهم على وجه أخص قد اتخذ من الحبشة ملجأ يقيهم اضطهاد الدولة العباسية وما قام على أنقاضها من دول سنية تغالي في السنة . كما أن الحبشة — منذ القدم — المهجر الطبيعي لليمنيين أكثر من غيرهم من طوائف العرب . وقد كانت اليمن موطناً صالحاً لنمو المذهب الشيعي . كما ان الاسلام هنا — اذ كان قد شابه شيء كثير من غلو الشيعة — فقد شابه أيضاً كثير من المعتقدات الدينية الوثنية التي لم يكن من السهل انتزاعها من القبائل الحبشية العريقة في الوثنية. خصوصاً ان الاسلام انتشر بين هذه القبائل كعقيدة سياسية وكمبدأ اجتماعي أكثر منه عقيدة دينية، وعلى يد الفاتحين وتجار الرقيق أكثر مما كان على يد المعلمين والمتفقهين في العلم.

لم تلبث الحبشة أن تعرضت في أواخر العصر الحديث لعصر الفوضى الذي جثم على صدرها مدى قرنين ونصف قرن ضعفت في أثنائه قوة الملوك وعمالهم إلى أقصى حد وقامت الثورات على سلطانهم في كل مكان من القبائل المختلفة ، واتجهت همة الملوك الى تحطيم هؤلاء النواد

سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين،غرباً أو سومالاً أو جالاً أو كوراجي أو غيرهم. وكثيراً ما نجح الثوار في التغلب على الملوك والقبض على السلطة مكانهم فادعوا الالقاب الملكية كما أدعوا السلطة التامة،ولكن ذلك لم يكن سهلاً إذ لا يلبث المنتصر أن يجد من يقاومه بدعوى انه ليس من الأسرة المالكة السليمانية،إذ كان ومازال الأحباش يعتقدون ان أسرتهم المالكة تنتسب إلى منليك الأول الذي ولدته الملكة ماكيدا من سليمان الحكيم ملك بيت المقدس حينما زارته في القرن العاشر قبل الميلاد وكان من الطبيعي أن يساعد ملوك الحبشة دائماً على رواج هذه القصة التي تؤيد حقهم في العرش وتجعلهم فوق مستوى الشك، وبعيداً من جميع الطامعين. ولا نستطيع أن نقول إن المسلمين خلال هذه المدة قد لعبوا دوراً خاصاً ولكنهم لا بد أنهم اشتركوا في كل اضطراب حدث في البلاد، وعمل الملوك من ناحيتهم على سحقهم وسحق غيرهم وهدم منشآتهم ومنشآت غيرهم،وقتل رجالهم وغنم أملاكهم كما يقتلون ويغنمون غيرهم. ولكنهم اعتقدوا أن هذا السحق وهذا الهدم وهذا الاضطهاد إنما هو موجه اليهم باعتبارهم مسلمين، فحقدوا على الدولة المسيحية وجعلوا يتوارثون هذا الحقد من ذرية الى أخرى ومن جيل الى جيل.

ولم تستطع الحبشة أن تخرج من هذه الفوضى الشاملة الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوة الامبراطور يوحنا الرابع (١٨٦٨—١٨٨٩) الذي أخذ في اخضاع الحبشة كلها تحت حكمه المباشر خصوصاً بعد اتفاقه مع منليك ملك شوا، ولقد حاولت مصر من جانبها أن تستغل المسلمين لنشر نفوذها في هذه الأثناء خلال حكم الخديوي اسماعيل (١٨٦٣—١٨٧٩) فغزت الجيوش المصرية بقيادة منزنجر باشا اقليم البحه المسلم واستولت على كرن كما اشترت اقليم ايلات في الشمال الشرقي من ماكه وصاحبه الا أن هزيمة الجيوش المصرية غير مرة قضت على المشروع من أحد نواحيه فحاولته من ناحية أخرى حين كتب الهرريون الى الخديوي يعرضون خضوعهم للحكم المصري،فأرسل اليهم رءوف باشا فدخل هرر في أكتوبر سنة ١٨٧٥

ولقد كان نجاح المصريين في الاستيلاء على هرر وترحيب الأهالي بالجيش المصري مشجعاً لهم على أن يعيدوا الكرة في الشمال، ولكن سحق الجيش المصري الذي كان بقيادة حسن باشا نجل الخديوي وأسره وفديته بخمس وعشرين مليوناً من التاليرات واضطرار الخديوي الى عقد قرض لدفعها جعل الخديوي يطرح جانباً كل هذه المشروعات بما جعل قبائل البجه تشيح بوجهها من محاولة طلب المساعدة الأجنبية، فتظهر خضوعها المطلق للامبراطور. ولكنهم إذا رأوا ازدياد قوة المهدي واستقلاله بالسودان عرضوا

عليه خضوعهم فأقام على تجربي واستطاع أن يتغلب على الاحباش في معركة انتهت بقتل الأمبراطور يوحنا في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ .

فاذا كان الربع الأول من القرن العشرين استطاعت قوة الأمبراطور منليك الثاني (١٨٨٩ — ١٩١٣) أن تحطم الثائرين وحلفاءهم وتطرد المهدي وتقيم دولة متحدة فيات المسلمون يكتمون حقدهم الدفين عن رغبة في الانتقام .

ولقد كانت همة الأمبراطور منليك تتجه الى جعل الحبشة دولة موحدة العناصر أوربية النظام . فأحسن معاملة غير الامهريين ورحب بالاوربيين فأقبلوا على الحبشة وأكثرهم من المبشرين البروتستانت الذين أفلحوا في نشر المسيحية بين قبائل الجالا والوالو وغيرهم من القبائل غير الامهرية ، وعلمهم اللغات الأجنبية فوجد فيهم الأمبراطور الاداة التي تساعده على الرقي ببلاده فاستخدمهم فأخذت عداوتهم للدولة تخف . وتختفي بينما ظل المسلمون بمعزل عن هذا كله ، فلم يتعاونوا مع هؤلاء المبشرين ولم يتعلموا عنهم ، فلم يدعوا إلى خدمة الدولة في المناصب المختلفة ، فاعتقدوا ان هذا الحرمان يعود الى اسلامهم وأن الحكومة قد أخذت تعطف على من يعتنق المسيحية وتحرم غيرهم ، فاذا تولى العرش الأمبراطور الشاب لدج ياسو حفيد منليك (١٩١٣ — ١٩١٦) ومال إلى المسلمين كل الميل ، التفوا حوله حتى زوجوه بمسلمة واشاعوا أنه اعتنق الاسلام ، ولم يقصروا أيضاً في استغلال هذا كله لمصلحتهم ، حتى لقد دفعوا بعلمائهم إلى اختلاق نسب الاسلام له فنسبوه إلى موسى الكاظم وجعلوه الحفيد الثامن والثلاثين للنبي صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وأطلقوا على والده الرأس ميخائيل اسم محمد علي . فأثار ذلك ثائرة المسيحيين عامة والامهريين خاصة ، فهبوا بقيادة الامير تفري أبن الرأس ماكونن وبارشاد المطران فدفعوا البلاد الى الثورة على هذا الأمبراطور وأجلسوا على العرش الامبراطورة زاوديتو حفيدة الأمبراطور منليك (١٩١٦ — ١٩٣٢) ولم يترددوا أيضاً بدورهم عن اشاعة الشائعات المبالغة عن ميل الأمبراطور المخلوع إلى الاسلام واستعداده لارغام شعبه على اعتناقه ولكي يضمنوا عدم تدخل الدول الأجنبية في حركتهم بل طلباً لمساعدتهم لو أمكن ، كما أشاعوا عنه انه كتب إلى السلطان العثماني يعرض عليه ولاءه له باعتباره خليفة ، المسلمين فلم يسمع المسلمين إلا أن يبيتوا على أحقادهم انتظاراً للفرصة المواتية حتى إذا اقتوى الايطاليون غزو الحبشة سنة ١٩٣٥ استغلوا هذا الشعور في المسلمين وأوهموهم أنهم ما أتوا إلا لاعادة المسلمين إلى ما يليق بهم (وبكثرتهم) من حق في حكم البلاد فكان هؤلاء عوناً للمحتل . وإذا ما نجح

الايطاليون في الاستيلاء على البلاد فقبضوا على الحكومة في مايو سنة ١٩٣٦، مالوا إلى المسلمين كل الميل وأخذوا في أعطائهم نصيباً كبيراً من المناصب التي طرد منها الامهريون وقرنوا هذا ... بالاهتمام بالأقاليم التي تسكنها أغلبيات مسلمة كهرر وكافا وولجا، وأخذوا في ... حتى تبلغ مبلغ العاصمة في التقدم ولم يكن ذلك كله إلا تنفيذاً لسياستهم التي كانت ترمي إلى القضاء على الحكم المركزي واقامة حكومات أقليمية متعددة تشعر كل منها بقوتها ولكنها تتشابه في خضوعها للمحتلين، وإذا ما أخذوا في دراسة البلاد دراسات تفصيلية كأساس لحكمهم فيها، طلعوا على العالم باحصائية لسكان الحبشة واجناسهم ودياناتهم، أدعوا فيها أقلية العنصر الامهري وأقلية السكان المسيحيين بالنسبة لغيرهم من العناصر والديانات .

ولقد وصلت هذه السياسة الجديدة بالايطاليين في أثناء حكمهم القصير للحبشة إلى نتيجتها الحتمية، ورضي المسلمون منهم ومن حكومتهم . لكن لم يلبث أن عاد الامبراطور هيلا سلاسي الأول إلى العرش في مايو سنة ١٩٤١ وأخذ في اعادة الامهريين إلى سلطانهم ومناصبهم السابقة فاعتقد المسلمون أن دوراً جديداً من الاضطهاد قد بدأ في الظهور فأخذوا يسيحون والدول الأجنبية المغرضة تحاول استغلالهم كما استغلوا اخوانا لهم من قبل . ولكن الامبراطور الحالي يعمل جاداً على القضاء على روح العداوة بين العنصرين فيرحب بهم دائماً كموظفين في الحكومة ويحرص على استقبالهم في الأعياد الرسمية وسؤالهم عن أحوالهم ويظهر العطف عليهم في مختلف المناسبات بالتبرع لهم من جيبه الخاص التبرعات الكثيرة . فعين المدرسين المسلمين في المدارس الاسلامية وأمر بتدريس القرآن والدين الاسلامي واللغة العربية في هذه المدارس بل لقد طلب من المستشار المصري لوزارة المعارف أن يضع كتاباً قومياً في منهج اللغة العربية لتدريسه بالمدارس الحبشية .

وحينئذ نستطيع إن نقول إن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة المعاصرة قد احتفظت بطابعها الذي ورثته عن العصور الوسطى والحديثة في أنها علاقات ودية إذا ما حصرت في دائرة الدين ولكنها سرعان ما تنقلب الى علاقات عدائية ممعنة في العداء اذا ما قصد استغلال الدين لتحقيق أي مطمع آخر وكانت هذه العلاقات العدائية تبلغ ذروتها إذا ما حاولت استغلالها قوة أجنبية لتحقيق مطامعها الخاصة كما فعل الأتراك مع الامام أحمد بن ابراهيم ، أو كما فعلوا بعد ذلك مع القائد نور ، أو كما فعل البرتغاليون والكاثوليك بعد عصر فاسيلاداس ، أو كما فعل الايطاليون في الأيام الحديثة ، أو كما تحاول الدول الاستعمارية أن تفعل في أيامنا هذه .